الفصل الثالث والعشرون

ذعر واهتياج وسط أشجار الرمّان

في مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1191م، أوقفت مجموعةٌ مثيرةٌ للشفقة من اللاجئين الناقمين الملطخين بالوحول الفارّين من عسقلان لا يحملون على ظهورهم غير بعض ما لا يستُرُ عارياً ولا يَسُدُّ الرَمَق. ومن فحوى غمغماتِهم وبؤسهُم، علم الصليبيّون بتهديم القاعدة الأمامية الجنوبية. ومع أن الملك لم يشكّ في صحة هذه التقارير، إلاّ أنه كان بحاجة لمعرفة حجم التهديم قبل أن يحلّل مقصده. ولذلك جهَّز قادساً متيناً، وعيَّن شقيق الملك غي قائداً له ـ جيوفري أوف لوسينيان Geoffrey of Lusignan، وهو قائد كفء ـ وأصدر له أوامره بالإبحار إلىٰ المياه المتاخمة لعسقلان ومرفئها. جيوفري أوف لوسينيان كان قائداً متحمّساً ولكنه كان، قبل كل شيء، مزهوّاً بنفسه أكثر من شقيقه. ولذلك كان يسرُّ لنفسه: «بما أنهم جعلوا منه ملكاً، فلا بدّ أن يجعلوا مني إلهاً!». عندما عادت السفينة تخبر بمشاهد مروّعة لأبراج مهدّمة، وبيوت أُضرمت فيها النيران، كان ريتشارد مستعداً للمباشرة في العمل.

قال ريتشارد قلب الأسد لمجلسه: «إنّ العرب يخافون من مواجهتنا في

الساحة. إنهم يهدّمون عسقلان، وأعتقد بأنّه من واجبنا أن نسعى لإنقاذها، وسيلةً لحماية الحجّاج اللاحقين الذين قد يمرّون بها».

إلاّ أنّ هنري دو شامباني ودوق برغندي والقادة الفرنسيين الآخرين أبدوا معارضة عنيفة لهذه الفكرة. فيافا، وإن كانت مدينةً أصغر مساحة، أقرب لأوروبا وتتلاءم بشكل أفضل مع احتياجات حجّاج المستقبل، وتصلح بالتالي، على أكمل وجه، ميناءً للدخول، وقد سبق للرجال أن بذلوا جهوداً خارقة في تنظيف خنادقها المائية وترميم أسوارها. أما عسقلان، فهي على العكس مجرد تحويل، قاعدة أمامية، لاحقة أثرية للمملكة الصليبية. كما أن موقعها المكشوف والموغل بعداً نحو الجنوب لا يساعد غير الحجّاج القادمين من أفريقيا، ولن يكون عددهم، على الأرجح، كبيراً. وفعلت حجة الفرنسيين فعلها في إقناع المجتمعين إما لقوّتها أو لعدد مناصريها. ولذلك خسر ريتشارد في التصويت ولم يسعه سوى الدمدمة لإخفاق حجته بقوله: «قد لا تكون خلافاتنا عديمة الفائدة على جيشنا فحسب بل قد تعرّضه للخطر أيضاً».

كتب مؤرخ إنكليزي لاحقاً عن هذا القرار: «مشورة غبية! عناد قاتل من جانب رجالٍ خاملين! لأنّ الفرنسيين اهتموا أولاً براحتهم المباشرة وحاولوا تفادي المزيد من المشقّة والتكاليف، ارتكبوا خطأ سيندمون عليه فيما بعد. فلو كانوا أنقذوا عسقلان، لكانت البلاد بأسرها قد تخلّصت من الكفّار». وحتى الماركيز المستقلّ، كونراد دو مونتفرّا، الذي لم يشارك في الحرب الصليبية، أرسل من معقله الشمالي في صور رسالةً وقحة إلى ريتشارد لبقائه ساكناً حيال ما تعرّضت له عسقلان. واستناداً لمصدر عربي، يبدو أن مونتفرّا كتب إلى ريتشارد بما يلي: «مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ويتقدم على الجيوش! تسمع أنّ صلاح الدين قد خرّب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل؟ يا جاهل! لمّا بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنتَ سرتَ إليه مجدّاً فرحّلْتَهُ

وملّكتها عفواً بغير قتالٍ ولا حصار، فإنه ما خرّبها إلاّ وهو عاجزٌ عن حفظها..»[1]

في اليوم الرابع من تشرين الأول/أكتوبر سنة 1191م، انصرف ريتشارد في يافا لكتابة رسالة لرئيس دير كليرفو (خليفة سان برنارد أوف كليرفو، رائد الحرب الصليبية الثانية، وممثّل البابا في منطقة لودوني Loudunais المتنازع عليها والواقعة شمال بواتييه). تضمّنت رسالته تبصُّراً هامّاً بحالته الفكرية وطموحاته المستقبلية. وشاب وصف تفوّقه على العدوّ شيء من المبالغة: فلم يهدم صلاح الدِّين عسقلان إلاَّ لأنه سَمِع بأنَّ ريتشارد «يزحف نحوه بخطى سريعة». كما أنّ السلطان لم «يجرؤ» على مواجهة المسيحيين وقد «تخلّى وغضّ النظر عن الأراضي السورية كلّها».

لم يخلُ تزويق ريتشارد للوضع من باعث خفيّ. وخلافاً لما خشيه صلاح الدِّين من توسيع لرقعة النزاع، بدا الملك في رسالته مُقلِّلاً من طموحاته عوضاً عن الإكثار منها. لم يُبدِ أيّ اهتمام بمصر ولم يظهر أي طموح في أن يصبح القيصر أغسطس الجديد في منطقة المتوسط. لا بل أظهر، خلافاً لذلك، نيته في الإستيلاء على القدس ومغادرة هذه الصحراء اللعينة بأسرع وقت ممكن. وانساق فكره نحو موعد رجوعه لبلاده. أما فيما يتعلّق بالمضائق والحيل التي يفترض أن تكون حركاتٍ يائسةً من جانب صلاح الدِّين، فإن ريتشارد لم يعتبرها عائقاً: «إننا نأمُلُ أملاً كبيراً بأن نستحوذ قريباً، بفضل الله، على إرث الرب بكامله. وبما أننا استحوذنا على هذا الإرث إلىٰ حد ما، وبما أنّنا تحملنا قيظ النهار ومشقّاته وصرفنا كل أموالنا... لم نستنفد أموالنا فحسب بل قوة أجسادنا أيضاً... فإننا نفيدكم بأننا لن نتمكّن من البقاء في الأراضي السورية بعد دخول عيد الفصح».

(1) الكامل لابن الأثير 12/ 71.

وانطلاقاً من إبلاغه بالمغادرة بعد ستة أشهر، توسّل الملك للبابوية للبدء في تعبئة جيش للاحتلال «بغية الدفاع وحماية مملكة الرب التي سنحكم السيطرة عليها، بإذن الله، بحلول عيد الفصح». أما أين يمكن إيجاد جيش الاحتلال، فإنّها مشكلة على البابا أن يواجهها. اعتبر عيد الفصح من سنة 1192م تاريخ المهلة الأخيرة. لم تكن هذه الرسالة مجرد بلاغ بل كانت إنذاراً «كي لا نُنعت، في آخر المطاف، بالكسل والإهمال في حال توقُّفِنا عن إبلاغ رجل في موقعه وقدسيته مسبقاً بمصالح النصرانية الملحّة. إن أكثر الحاجات إلحاحاً تستدعي من نيافتكم حثّ شعب الرب على العمل». وباختصار، انتهى دور ريتشارد عند هذا الحد. ومن واجب البابا الآن أن يمسك بزمام الأمور.

بيد أن الرسالة التي كتبها ريتشارد لرئيس دير كليرفو لم تتضمّن آخر ما وصلت إليه حالته. فبعد مرور أسبوعين، وبالتحديد في الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، كتب للأميرالات رسالة مناقضةً تماماً. فبعد أن كانت طموحاته متواضعة في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر، كَبُرت وعظُمت إلىٰ حد بعيد في الحادي عشر من الشهر ذاته: «ينبغي أن تعلموا أنّنا نزمع، بعد الحصول على موافقتكم، إرسال قواتنا، في فصل الصيف المقبل، لغزو مصر ودخول القاهرة والإسكندرية إكراماً لله ودوساً لكرامة المسلمين...» وتابع في تخيّل كل الهبات التي يمكنه الحصول عليها في هذه الحملة. ربما استخدم هذه الحيلة من أجل إقحام المزيد من المراكب الجِنوية في الحرب ودافعه في ذلك طمعه وحسب. لم يكن ريتشارد، حتى الآن، قد تخلّى عن رغبته في أن يكون القيصر أغسطس.

II

المأزق

أدى قرار المكوث في يافا إلىٰ ظهور ثغرة دامت شهرين، ويبدو أن الاسترخاء بين أشجار التين والرمان أطفأ نار الحرب الصليبية. وأبحرت المراكب متنقلة بين عكّا ويافا تحمل مواد غذائية ونساءً ممتلئات القوام.

إلىٰ الجيش عادت النساء

وشاعت تجارة العار وقلة الحياء

كلمات دوّنها الشاعر الأوّل للحملة الصليبية. وبدورهم، سارع العديد من الجنود للصعود على متن المراكب المتجولة بين يافا وعكا، رغبةً منهم في الإنغماس في ملذات الحانات والمواخير التي تقدّم إغراءاتٍ أكثر بكثير. ساهم ريتشارد، بغير ذكاء في نشر هذا السلوك غير المنضبط باستدعائه ملكته بيرينغاريا وشقيقته جوهانا، ملكة صقلية سابقاً، من قلعة المرقب الحصينة. فقدمتا برفقة حاشيتهما وحشمهما وخدمهما وموسيقاهما وحفيف ثيابهما الفاخرة. وبما أنّ الملك انغمس في حياة المرح والتسلية، فكيف يمكن لجنوده التشبُّث بثيابهم الحربية؟

أدرك ريتشارد، بعد مرور عدة أسابيع، ما تعرّضت له قواته من استنزاف وأرسل الملك غي إلىٰ عكّا لتجميع الرجال الضالين وإعادتهم استعداداً للمرحلة التالية من الحملة. وعلى الرغم من استعادته مؤخراً لمنصب قائد تحت أمرة الملك ريتشارد إلاَّ أنَّه كان لا يحظى إلا بالقليل من الاحترام في صفوف الجند. كتب أحد المؤرخين بسخرية: «لقد عادوا بخطى بطيئة حبّاً بالملك غي»، لذلك أصبح من الضروري أن يسافر ريتشارد شخصياً إلىٰ عكّا لتوبيخ جنوده وتهديدهم وفرض الانضباط عليهم بقوة السوط. وفيما نجح الملك في إعادة

المتكاسلين إلىٰ رشدهم وصفوفهم، إلاّ أنّه قوّض؛ إلىٰ حد ما، الهدف الذي كان يتّبعه بعودته مصطحباً مجموعة من الخدم ومبلغاً مالياً كبيراً ليوفّر للعائلة الملكية المزيد من الراحة في يافا.

أثناء هذه الإجازة في يافا، كادت مصيبة أن تقع على الطرف الصليبي. ففي اليوم الثامن من رمضان، خرج ريتشارد لصيد الصقور ترافقه حاشية قليلة العدد، إرضاءً لرغبته في ممارسة رياضة بريئة. ولا شك في أنه كان يأمل باصطياد بعض الطرائد، لكنّه كان مستعداً للإنقضاض على بضعة أتراك أيضاً في حال لاحوا لناظريه. من الناحية الجدلية، كان لغزوته هذه هدف عسكري شرعي فقد كان بحاجة لاستكشاف المواقع المترامية أمام ناظريه أثناء تقدّمه على الطريق الرومانية القديمة جنوب شرق الرملة.

وجد نفسه، بعد مرور عدة ساعات من الجري المتعب، على مسافة غير بعيدة من اللُّد ـ ولعلّه زار الكنيسة العظيمة المكرّسة للقديس جورج ـ فقرّر أن يخلد للراحة في بعض الأحراج واستسلم للنوم. صادف ذلك مرور دورية قوية من المسلمين في هذه المنطقة الساكنة، وعندما رأى أفرادها أنّ الحارس مستغرق في النوم، انقضّوا كالصاعقة على المجموعة المتهوّرة. استيقظ ريتشارد على صوت الصخب وبالكاد استطاع امتطاء فوفيل قبل أن يهجموا عليه. فاق المهاجمون مجموعة الصيد عدداً ولذلك كان أسرهم مؤكداً ووشيكاً لو لم يتخلله تصرّف ماكر من أحد الفرسان النورمانديين. وجد ويليام دو بريو William de Préaux، وهو من حاشية الملك، أنّ كارثة هائلة توشك أن تضربهم فبدأ يصرخ مدّعياً أنّه الملك ريك الباسل ولا أحد غيره، وأنّه لا يحقّ لهم أخذه أسيراً، وهذا بالضبط ما قام به العدو على الفور.

استفاد ريتشارد من هذه البلبلة كي يبتعد عن الموقع. فقد كانت «يد الله تحميه كي يحقّق إنجازات كبرى» حسب قول أحد المؤرخين. وألقي ويليام دو بريبو المسكين في سجن المسلمين حيث استمرّ أسره حتى نهاية الحرب

الصليبية حين أطلق سراحه مقابل فدية باهظة. وما أن انتشر خبر هذه الكارثة الوشيكة بين صفوف الجنود حتى ساد الذهول الجميع للمخاطرة التي عرّض قائدهم نفسه لها. وجّه إليه بعض الفرسان اللوم على تهوّره ولكنّه استخفّ بخوفهم بحركة من يده. وقال لهم بنبرة يملؤها التهكّم: «ما من أحد يستطيع أن يبدّل في طبيعتي ما أن أخرج إلى الفلاة».

وفي حادثة أخرى، وجدت مجموعةٌ من فرسان الهيكل نفسها في وضع حرج، وتوسّل مساعد ريتشارد إلى مليكهم عدم المخاطرة في القيام بعملية إنقاذ بطولية. فقال أحدهم: «مولاي، إنّه لضرب من الجنون أن نقاوم بعديدنا القليل هذه المجموعة الكثيرة. إننا عاجزون عن إنقاذ رجالنا الذين يقاتلون ومن الأفضل أن نتركهم يلاقوا حتفهم على أن تتعرّض جلالتكم والدين المسيحي بأكمله لخطر محتم فيما كان الوقت لا يزال يسنح بإمكانية الفرار».

وصرخ ريتشارد معترضاً: «ماذا! لو أني تجاهلت تقديم العون لرجالي الذين أرسلتهم في الطليعة واعداً إياهم باللحاق بهم، فلن أستحق أبداً أن أكون ملكاً».

وعلى الرغم من هذه الشجاعة، كانت هواجس ريتشارد وقلقه حيال العملية كلّها تتزايد. فقد امتد سهل الرملة، على الطريق الرومانية المؤدية إلى أورشليم. كانت الرملة عاصمة فلسطين القديمة. ومع أنها لم تكن موجودة في زمن ظهور الإنجيل، إلاّ أنها كبرت وعَظُمت خلال الأربعمائة سنة الأخيرة من وجودها حتى ماثلت، في مرحلة من المراحل، أورشليم مساحةً. وقد لفتت هذه المدينة الانتباه إليها بحمّاماتها المنعشة ومنازلها الشاسعة والعدد الكبير لليهود فيها فقد بلغ عددهم حوالي ثلاثمائة نسمة عاشت في جوّ هادىء دون التعرّض للتنكيل وبتناغم مع سكّان البلدة المسلمين وحكّامهم الصليبيين.

اتّخذ جيش صلاح الدِّين من هذه المدينة مركزاً دفاعياً له. واكتشفت

البعثات الصليبية الاستكشافية أنّ صلاح الدِّين يهدم أي تجهيزات ذات قيمة عسكرية تقع بين الجيشين. وانطلاقاً من وجهة نظر استراتيجية، قام مخطط صلاح الدِّين على التهديم والانسحاب مع الإغارات المستمرة على الجنود الصليبيين أثناء تقدمهم على الساحل، وباتجاه القدس.

وفيما كانت كتائب ريتشارد تغادر يافا إما لأغراض استكشافية أَو بحثاً عن العلف، انقضت عليهم خيالة العدو أرسالاً. وبصدّ ضربات العدو صداً شجاعاً، سقطت ضحايا جديدة عند كل مواجهة. وفي كل قتال، يسطع نجم أحد الفرسان النبلاء الجسورين وينضم إِلىٰ قافلة الرجال الأسطوريين عندما يسقط على أرض المعركة. وحول البطل يتوارى أيضاً، رجال آخرون دونه مرتبة لكنهم يوازونه قيمة. وبسبب المضايقات المتكرّرة، كان لا بد من تعزيز الحراسة على الكتائب الباحثة عن العلف بالإضافة إِلىٰ تقصير مسافة ابتعادها عن قوى الجيش الأساسية.

في أكثر من مناوشة، سارع ريتشارد على صهوة جواده لإنقاذ جنوده مع ما يكتنف هذا الأمر من مخاطر جمّة، وبخاصةٍ أنّ جواده لم يكن بالرشاقة المطلوبة كي يَلْحق بالمسلمين سريعي الخطى ومثيري الغضب. أما مواصلة الجري وراءهم بحيث يتوغل في مناطق بعيدة فعمل يجرّ وراءه الكوارث. بعث الملك بمهندسيه لإعادة بناء برج السهول وبرج معان، وهما قاعدتان عسكريتان صغيرتان تقعان على طريق رملة. ولكن أي حامية ستقيم فيهما عند انتهاء أعمال البناء؟ وكم ستدوم فترة الإقامة قبل أن تحثهم الوحدة أَو الهزيمة أَو الجوع على هجرهما؟ شاعت أخبار عصابات منظّمة من اللصوص المسلمين الذين كانوا يتسلّلون إِلىٰ معسكرات الصليبيين ويقتلون الحرّاس ويسطون على مخزون الطعام حتى وصلت إِلىٰ مؤخرة الجيش في أراضي كلّفت السيطرة عليها ثمناً باهظاً من أرواح المسيحيين. كم من الوقت يستطيع المسيحيون التعايش مع هذا

الوضع؟ أوليست تلك نبوءة بما يخبئه لهم المستقبل؟ في هذه الأثناء، علم ريتشارد بأنّ صلاح الدِّين هدم كاتدرائية القديس جورج الجميلة في اللد ودمّر قلعة الرملة.

وفي رواية المؤرّخ العربي بهاء الدين (ابن شداد)، فإن ريتشارد أشار من جديد إلى رغبته في التفاوض، وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من رمضان الموافق السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1191م. وطلب الاجتماع بالملك العادل شقيق صلاح الدِّين. وعند تقاطع طرق يازور التي تبعد ثلاثة أميال عن يافا وثمانية عن الرملة، التقى مبعوثان من الطرفين وسط قرقعةٍ صاخبة وسُلِّمت الرسالة التي وجّهها ريتشارد لصلاح الدِّين بكل لياقة. وعاد السفير بعدها إلى الرملة ودخل على حضرة السلطان نفسه.

قرأ صلاح الدِّين في رسالة ريتشارد قوله: «إنّ المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقّه»[1].

بهذه الألفاظ المنتقاة، أشارت الرسالة إلى أنّ أورشليم، والصليب المقدس، والمملكة اللاتينية تمثّل نقاط النزاع الرئيسية بينهما. «..ليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد. والقدس معبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبقَ منا واحد»[2]. وطالب ريتشارد باستعادة منطقة مملكة القدس بأسرها كحق وراثي لهم. وألحق بطلبه هذا، كما لو كان فعلاً القيصر أغسطس، مطالبته بالقاهرة باعتبارها إتاوة![3].

وتطرّق أخيراً لموضوع الصليب فقال: «وأما الصليب فهو خشبةٌ لا مقدار

(1) ابن شداد، مصدر سابق، ص 193 – 194.
(2) ابن شداد، ص194.
(3) ليس في نص ابن شداد ذكرٌ لذلك، وهو مستبعَد!

له عندكم، وهو عندنا عظيم، فيمنُّ به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم»[1].

وعلى غرار العديد من المبادرات الدبلوماسية، تمحورت أهمية هذا الاستهلال في ما يمكن قراءته بين السطور. ولذلك قرأه صلاح الدِّين بعناية الكرّة تلو الكرّة. علامات الدهشة علت وجوه المسلمين لسماعهم بهذه الشروط التي يطالب بها شخص يجد نفسه مطوّقاً وجيشه مثبّط الهمة وحلفه في انحلال. ولكنّ كلمات الرسالة الاستهلالية تنمّ عن تعب وتشير إلىٰ توق لمخرج يحفظ الكرامة. وعلى صلاح الدِّين أن يتعامل مع هذه المناورة بكل حذق. لم يغب عن فكره أنّ الحرب قد أنهكته هو أيضاً. فأي هزيمةٍ أخرى تصيبه تؤدي إلىٰ تلاشي جيشه كله.

قال صلاح الدِّين للمبعوث المسيحي: «إن ملككم يطالبني بتقديم ما لا أستطيع أن أقدّمه له دون إلحاق المهانة بالدين الحقّ. إلاّ أنني أعرض عليه أراضي منطقة القدس كلها، ابتداءً من نهر الأردن وصولاً إلىٰ البحر الغربي، شريطة ألا يقوم المسيحيون ولا المسلمون بإعادة بناء عسقلان». ويبدو أنّ هذه الملاحظة بثّت الأمل في قلوب سفراء الصليبيين. ولكن عندما جلس صلاح الدِّين للردّ على رسالة ريتشارد، لم يأتِ على ذكر هذا العرض الجديد.

كتب صلاح الدِّين في ردّه: «القدس لنا كما هي لكم، وهي عندنا أعظم مما هي عندكم؛ فإنها مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنها، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين. وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت. وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دامت الحرب قائمة. وما في أيدينا نحن نأكل بحمد الله مغلّه وننتفع به. وأما الصليب فهلاَكُهُ عندنا

(1) ابن شداد، ص194.

قُربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرّط فيها إلا لمصلحةٍ راجعةٍ إلىٰ الإسلام هي أوفى منها»[1].

بات الوضع شبيهاً بلعبة «ضربة منك وضربة مني»؛ في لغة الدبلوماسيين، عرض الفريقان مبادئهما الخاصة وكان بينهما تبادلٌ صريح للآراء والمصالح. بدا خلافهما عسيراً يصعب حلّه. ولا تحلّ الكلمات محل كل شيء آخر. أصبح العادل شخصياً حامل ردّ صلاح الدِّين الحادّ على رسالة ريتشارد، وعندما وصل شقيق السلطان إلىٰ معسكر الصليبيين، قوبل بترحاب حار. كان ريتشارد عليلاً، ولم يتمكن من استقبال المبعوث، فقد كان الملك يخضع لعملية فصد (لم يكن عليلاً بل كان يخضع لعلاج وقائي وحسب، إذ كان يُنصح بفصد كل المسافرين في تلك الفترة من السنة لوقايتهم من الوقوع في المرض). وتلبيةً لتعليمات الملك، دُعي العادل إلىٰ عشاء فاخر. وردّ القائد العربي على هذه الحفاوة بتقديم هدايا قيّمة هي عبارة عن سبعة جمال وفسطاط رائع لريتشارد. ونمت بين الملك والأمير مشاعر الألفة والتفاهم.

وانطلاقاً من هذا التبادل الجدي للعروض الذي تخلّلته لمساتٌ مليِّنة للأجواء تمثَّلت في الهدايا والمجاملات والمآدب، تحوّل الوضع لفترة وجيزة إلىٰ مَهْزَلة. أما كيف تطوّر العرض السخيف بعض الشيء فغير واضح؛ لكنّ المعروف أن نظرة ريتشارد للمرأة باعتبارها وسيلةً للتسلية كانت متأصّلة فيه، وقد بقي العادل في الضيافة الغربية لفترة كافية للإحساس بالإعجاب تجاه السيدات الغربيات. إلاَّ أنه ترك المعسكر الصليبي وعاد إلىٰ فسطاط شقيقه في الرملة حاملاً عرضاً رائعاً من «الأنكتار» وهو اللقب الذي عرف به ريتشارد في بلاد المسلمين.[2]

---

(1) ابن شداد، ص 194.

(2) يبدو أن هذا اللقب، والذي يعني: الإنكليزي، تحوير للمفرد الفرنسي: انكتير، مع إسقاط «اللام» للتسهيل. وما يزال لقبه: الإنكتير واضحاً (الإنكتار) في بعض مخطوطات ابن الأثير، وابن واصل.

طرح العادلُ رسمياً العرض الجديد على شقيقه على النحو التالي. يتقدّم الملك العادل الملقّب بسيف الدين لخطبة جوانا شقيقة ريتشارد وملكة صقلية السابقة. وبعد الزواج، يتشارك العروسان في حكم مملكة أورشليم الجديدة ويكون المركز الملكي في القدس. يسلّم صلاح الدِّين الأراضي الفلسطينية كافة إلىٰ شقيقه، ويسلّم ريتشارد كل الأراضي التي يسيطر عليها إلىٰ شقيقته. ينصهر النصفان لتكوين المملكة المهجّنة، على الرغم من أنه سيُسمح لفرسان الهيكل والإسبتاريين بالاحتفاظ بقلاعهم ضماناً لأمن وراحة الحجّاج الوافدين، وتُعطى الحرية للمسلمين لزيارة المواقع المقدَّسة في القدس دون أن تعترضهم أية صعاب. يسترجع ريتشارد الصليب الحقيقي ويغادر بعدها الأراضي المقدَّسة.

قبل أن ينتهي العادل من طرح فكرته الخيالية على السلطان، انتشر خبر العرض بسرعة في أنحاء معسكر المسلمين، وأثارت طبيعته المغرية شعوراً كبيراً بالفرح في صفوف الجنود العاديين. هل بات السلام وشيكاً؟ قرّر صلاح الدِّين، احتراماً لشقيقه الموقّر، أن يستمع إلىٰ عرضه حتى النهاية على الرغم مما واجهه من صعوبة في لجم نفسه عن إطلاق ضحكة صاخبة. فهو لم يعد يشك الآن في أنّ الملك ريتشارد صاحب روح فكاهة عملية.

بادىء ذي بدء، لا يحرّم القرآن الزواج من مسيحية. لكن التناغم الروحي بين الرجل وزوجه في الدنيا وفي جنة الخلد عقيدة أساسية من عقائد الإسلام. فالأفضل للزوجين معرفة الله وعبادته بالطريقة ذاتها. وفي هذا الصدد، تنصّ الآية القرآنية على ما يلي:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ [سورة البقرة: 221].

فلكي ينجح هذا النكاح، كان السلطان يفضّل أن تعتنق جوانّا الإسلام.

ولو حدثت المعجزة، وأقيم حفل الزفاف الإسلامي ـ المسيحي

المشترك، فيمكننا سماع الشعراء يطيلون في مدح الملك العادل. وفيما بعد، كُتبت عنه قصيدةٌ جاء فيها:

«عدالته وهيبته انتشرتا في كل البلدان؛ وكذلك الأمر في كرمه وجوده.

هيبته هي التي جعلت الذئاب تتجمّد جوعاً ورعباً طوال الليالي رغم وجود الغزلان الرقطاء على مقربة منها.

ولا أحد من المسلمين يمكنه أن يتطرق إليه الشكُّ في أمانته على الإيمان والإسلام.

وهو سيف الله الذي حُلّتُهُ سطورُ المجد؛ ومعدِنُ الحُسام أصالتُهُ من أصالة معدن حامله.

كرمُ خُلُقه يدفعه للعفو عن كبار الذنوب.

لا تذكروا الملوك السوالفَ عند ذكره، فقد تفرد بين الحاضرين، كما بين السابقين..»[1].

ومع ذلك، وكما جرت العادة بخصوص معالجة أمور الدولة، جمع صلاح الدِّين مجلس الأمراء، وقرىء العرض ثلاث مرّات. وبعد كل قراءة، كان صلاح الدِّين يعبّر عن موافقته الرسمية متيقناً كل اليقين، كما أوضحه المؤرّخ المسلم[2]، بأنّ ريتشارد لن يوافق أبداً عليه وجلّ ما يقصده من هذا الاقتراح هو التسبّب بإزعاجهم. ومهما كانت الأمور المرتبطة بهذا العرض المضحك، فقد تمكّن المسلمون من تأخير القتال لفترة طويلة.

ولكن كان لا بد أن تُرَدَّ الكرة إلىٰ ملعب الصليبيين ثانية. فعند سماع هذا الطرح، طرحت جوانّا نفسها أرضاً تصرخ وتزعق تعبيراً عن رفضها مقسمةً بكل

(1) ترجمتُ القصيدةَ ترجمةً مقارِبة؛ لأنني لم أستطع العثور عليها في المصادر (المترجم).

(2) ابن شداد، ص 196: «بادر إلى الرضا بهذه القاعدة، معتقداً أن الملك الإنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً، وأن هذا منه هزوٌ ومكر..».

مقدّس أنّها لن تتزوج بمسلم. وفي ظل ظروف مماثلة، لم يكن ريتشارد في أحسن حالاته. وعندما عاد المبعوث المسلم بالردّ، وصف الملك المرتبك حزن شقيقته وقال: «إنْ كان الملك العادل يتنصر، فأنا أتمم ذلك». ومع تجاهله الظاهر لاستحالة تحقيق هذا المطلب لكنّه أصرّ عليه كما لو أنه موشِكٌ على عقد الاتفاق!

أما رسالته الرسمية التي وجّهها إلىٰ السلطان فتختصّ بالقدس واقتراح بتقسيم الأراضي. كتب لعدوه قائلاً: «إني أحب صداقتك ومودتك. وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا عُلقة بالقدس الشريف. ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لومٌ من المسلمين، ولا عليّ لومٌ من الإفرنجية»[1].

وأمام رفض جوانا، ضَمن ريتشارد بديلةً لها فعَرضَ ابنة شقيقته إليانور أوف بريتاني. قد لا تكون ملكةً إلاّ أنّها بِكر مطواعة. وبتقديم هذه الفتاة القاصر، لن يحتاج لموافقة البابا كما كان يجب أن يحدث في حال ملكة سابقة، كما أن وصول الإذن من روما يستلزم تأخيراً يدوم ثلاثة أشهر على أقل تقدير. ولكن العادل شعر بالإحباط عند وصول هذه الرسالة إليه. لقد اختار قلبُه ملكةً نصرانية، ولن يرضى إلاّ بملكة نصرانية. هكذا أظهر اللاعبان أنهما صعبا المراس.

وسط هذه التمثيلية، ظهرت حبكة ثانوية غريبة زادت الوضع تعقيداً. في اليوم ذاته الذي كان يفترض أن يقابل فيه همفري أوف تورون بالنيابة عن ريتشارد صلاح الدِّين، وصل بارون محلي آخر، هو أمير صيدا، إلىٰ معسكر المسلمين وكان يحمل في جعبته رسائل رقيقة المشاعر من كونراد أوف مونتفرّا، ماركيز صور. كان أمير صيدا شخصية مألوفة للمسلمين. فقد شغل لسنوات

(1) ابن شداد، ص 202.

عدةٍ خَلَت مركز اللورد الحاكم لقلعة الشقيف الواقعة في جنوب لبنان. نجا من معركة حطين ولكنّه وقع أسيراً في معركة أخرى ودام أسره في دمشق حتى فترة قريبة. طوّق صلاح الدِّين حصنه في الشقيف لأكثر من سنة ابتداءً من سنة 1189م ولم يسلّم إلاّ بعد أن أنهكه الجوع. عقد حلفاً مع كونراد أملاً في استعادة بلدته الساحلية التي يسيطر عليها المسلمون.

بالطبع، كان لا بدّ أن يدير ظهره لعملية ريتشارد بأسرها ما أن انحاز ريتشارد إلىٰ الملك غي. غادر عكّا ساخطاً قبيل سقوطها، ودخل في شراكة مع فيليب ملك فرنسا واستقبل أسرى فيليب ونصف الغنائم الفرنسية قبل أن يغادر الملك فيليب سرّاً إلىٰ فرنسا. وكما لو أن كونراد بديل عن فيليب، زاد التوتر حدّة مع زحف ريتشارد نحو الجنوب. وعندما أبحر ريتشارد من يافا إلىٰ عكا عقب معركة أرسوف، كان ينوي، بالإضافة إلىٰ عملية تجميع الجنود المتهربين المتكاسلين، تسوية خلافاته مع كونراد ومجموعة الرفض الفرنسية، ولكنه أخفق في هذه المهمة الأخيرة، وظلّ كونراد، بالنسبة للمسلمين، أكثر البارونات المحليين إرعاباً بفضل قدراته وشجاعته وطاقته الحيوانية.

فماذا كان يدور في خَلَده الآن؟

بعد خروج العجوز همفري أوف تورون، أُذِن لأمير صيدا بالدخول على صلاح الدِّين وطرح عليه عرضاً مميّزاً. لقد ضاق ذرع كونراد أوف مونتفرّا من هذا الإنكليزي المستأسد المتعجرف. وهو اليوم مستعدّ للتحالف مع صلاح الدِّين من أجل طرد المنافق خارج الأراضي المقدَّسة. وفي مقابل هذا التحالف الخالي من أي طبيعة قدسية، يتنازل صلاح الدِّين عن مدينتي صيدا وبيروت. وأكثر من ذلك بعد، فإنّ كونراد مستعد لحصار الصليبيين في عكّا. ومتى سقطت هذه المدينة بين يديه فإن حكمها يصبح من حقّه. ولم يكن من الصعب تخمين ما دار في مخيِّلة كونراد. كان يسعى للحصول على دولة من نوع آخر تضم مدن بيروت وصيدا وصور وعكّا الشمالية، يقطنها أحفاد أبطال

الحرب الصليبية الأولى عوضاً عن هؤلاء المتطفلين «القادمين من وراء البحار»، ويرأسها هذا المرتد من بيدمونت.

اغتبط صلاح الدّين بهذا العرض المستقلّ. وشعر بالارتياح لإمكانية زرع التفرقة في صفوف الصليبيين بين الأوائل منهم والغزاة الجدد. وبقبول صلاح الدّين عرض كونراد (وهو ما كان يميل للقيام به على الفور)، يحيل الأوروبيين شاحبي الوجوه لقتال غيره. وإذا اقتحم كونراد عكّا، سيضطر ريتشارد إلىٰ إيقاف تقدمه نحو أورشليم والعودة للدفاع عن الأراضي القديمة.

أُعِدَّت خيمة فخمة لأمير صيدا في معسكر المسلمين كُسِيَت أرضيتها بالسّجاد المترف والوسادات الوثيرة. وأُقيمت له مآدبُ وفيرة، وصحبه العادل شقيق صلاح الدّين لاستكشاف خطوط القتال. وهكذا عومل أمير صيدا معاملة الحلفاء أَو السادة، وقدّمت له الحفاوة اللازمة لبضعة أيام فيما كان الأمراء يتشاورون في العرضين المتنافسين المطروحين عليهم.

وفي جو لا يمت للواقع بصلة، تنقّل المفاوضون المسلمون ذهاباً وإياباً بين المعسكرين المختلفَين. وفي مرحلة من المراحل، نُصب فسطاط خاص بين الطرفين، فرش بأنفس المفارش كان العادل وريتشارد يلتقيان فيه ويقوّيان روابط الصداقة بينهما على مائدة المأكولات والمشروبات. ونقلاً عن مؤرخ عربي، انفصلا «بعد التوكيد على الرغبة في المودة والصداقة»[1]. وفي السادس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، قدّم ريتشارد للعادل حصان قتال مهيباً هديةً منه للسلطان.

وفي دورة أخرى مع مبعوث ريتشارد، تمّ التطرّق لموضوع الأسرى. قال السلطان بسخرية لهمفري أوف تورون: «إن كان الصلح فعلى الجميع، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء»[2]. عندما غادر المبعوث،

(1) ابن شداد، ص 219.

(2) المصدر السابق، ص 202.

التفت صلاح الدِّين إلىٰ مستشاره قائلاً: «متى صالحناهم لم تؤمن غائلتهم، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج. والمصلحة ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت»[1].

ومع ذلك، جمع السلطان أمراءه التزاماً منه بالشكليات كي يسألهم عن رأيهم في هذين العرضين. وأجابوه بأنّ عرض ريتشارد أفضل شريطة أن يكون صادقاً؛ فإن خبرتهم الطويلة علّمتهم أن التوصّل لاتفاق صريح مع البارونات المحليين مستحيل. فلطالما خرقوا وعودهم. كما أنّ خبرتهم الجديدة الأمد بيَّنت لهم أن التخلّص من الإنكتار وجيشه من مصلحتهم.

وهكذا ضعفت مبادرة كونراد. وفي غضون أيام قليلة، أنهى أمير صيدا ضيافته الفخمة في معسكر المسلمين وغادره. في هذه الأثناء، فرض الواقع نفسه على جبهة الزواج. ولم يبدُ الوضع كأنّ الحرب الصليبية الثالثة ستضع أوزارها بفضل مشاعر أخوية ملتهبة. ذكر ريتشارد في رسالته الأخيرة ما أثاره عرض الزواج من رعب في المعسكر المسيحي فلم يصدر فقط عن جوانا بل أيضاً عن الكهنة. فَمَثل كتاب المسلمين المقدّس في تحريم الزواج بالمشركات كمَثَل الكتاب المقدس لدى المسيحيين في المقابل، إذ ورد في سِفر تثنية الاشتراع ما يلي: «ولا تصاهرهم. بنتك لا تعطِ لابنه وبنته لا تأخذ لابنك. لأنه يردّ ابنك من ورائي فيعبد آلهةً أخرى فيحمى غضب الرب عليكم ويهلككم سريعاً» [سفر التثنية: 17/ 1 ـ 4].

المعارضة كانت مضاعفة. كتب ريتشارد في رسالة له إلىٰ صلاح الدِّين يقول له: «إنّ معاشر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أختي تحت مسلم بدون مشورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدّمه. وها أنا أُسيِّرُ إليه رسولاً يعود في ثلاثة

(1) المصدر السابق، ص 202 - 203.

أشهر، فإنْ أذِن فبها ونعمت، وإلاّ زوجتك ابنة أختي، وما أحتاج إذنه في ذلك»[1].

عندما وجد صلاح الدِّين نفسه أمام استحالة البقاء ساكناً طوال ثلاثة أشهر ومعارضة جوانا للزواج من العادل، ورفض العادل الزواج بإليانور أوف بريتاني، لم يكلّف نفسه عناء الردّ على هذه الرسالة. لقد آن أوان العودة إلىٰ العمليات الحربية. حاول ريتشارد مرّةً يائسة أخيرة وضع حدّ للنزاع بالطُّرق الدبلوماسية. وعن طريق صديقه الجديد وصهره العتيد، جدّد طلبه في لقاء شخصي يجمعه بصلاح الدِّين. أثار هذا الطلب اهتمام حاشية السلطان، ولكنّ صلاح الدِّين أعطى الردّ ذاته فكتب إليه قائلاً: «إنه لعار وخزي أن يقاتل الملوك واحدهما الآخر بعد أن يجتمعوا. فلنجد حلاً للنزاع بيننا أولاً ومن ثمّ يصبح من المناسب لنا أن نلتقي ونتحادث بمواضيع جدية. وعندها فقط، يمكننا أن لا نعودَ للحرب، ونضع حجر الأساس لعلاقة صداقةٍ خالصةٍ بين الأمتين».

III

اتركوا الأمور تأخذ مجراها

فيما كانت هذه الاتصالات الخيالية جارية، لم تبق الجيوش عاطلة عن العمل. فلم تخمد نار المناوشات والاستكشافات في سهل الرملة، فيما التقت الفرق الباحثة عن العلف من الطرفين وجهاً لوجه. بلغ صلاح الدِّين الخبر المرعب بأنّ الفلاحين في المنطقة الشمالية من عكّا يمدّون جيش الصليبيين بكميات وفيرة من الحبوب واللحوم، ويقضون بالتالي على أمل تجويع القوة الغازية في المنطقة الداخلية. وأخبرته عيونه بأنّ ريتشارد يزمع مغادرة يافا والزحف نحو الرملة.

بفضل هذه المعلومات التجسّسية، واصل صلاح الدِّين تهديمه للقلاع

(1) المصدر السابق، ص 203 - 204.

قبل وصول الصليبيين الزاحفين إليها. أُعجب بجمال كنيسة القديس جورج في اللد قبل أن يهدمها ويسوّيها بالأرض. ولاقت المصير ذاته كنيسة نظيرة لها هي كاتدرائية القديس جورج في الرملة وقلعتها التي سقطت ضحية لمنجنيقه ومعوله. أُصدِر إلىٰ سكان البلدة أمر المغادرة والإخلاء وكان عزاؤهم الوحيد حصولهم على حق أخذ الحبوب من مستودعات الدولة. وفي الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر، نظر السلطان بإعجاب إلىٰ قلعة النطرون Latron المنيعة المعروفة أيضاً باسم طورون الفرسان قبل أن يأمر بهدم أبراجها الخمسة. وفي مطلع شهر رمضان، قام برحلة سرّية دامت ثلاثة أيام إلىٰ القدس للتحقق من مخزون أسلحتها ولتقوية بعض الشرفات المشعّثة في الأبراج. هكذا أصبحت المدينة المقدّسة مستعدّة للمواجهة.

في أواخر شهر تشرين الأول/ أكتوبر، هجر الجيش الصليبي أخيراً ملذات يافا. وبعد أن تخطّى يازور، المحطة الرئيسية على درب الحجّاج، عسكر في أطلال اللد والرملة. وفي هذا الموقع الموحش المليء بحجارة قرميدية منثورة وجدران مهدّمة مكثوا طوال اثنين وعشرين يوماً بسبب سوء الأحوال الجوية في الغالب. فقد انهمرت الأمطار الغزيرة والبَرَد على الجنود، واقتلعت الرياح أوتاد الخيم، وغرقت الأحصنة، و فَسد الخبز. نخر الصدأ الدروع التي يلبسها الفرسان. وتحوّلت التربة إلىٰ بحر من الوحول حال دون تقدّم الجيش. إلاّ أن الأمطار الغامرة لم تمنع العدو من إمطار معسكرهم بالسهام.

وفيما كان صلاح الدِّين يدمّر الأرض قبل حصول الغزو، سرت في معسكر المسلمين شائعات وأخبار النكسات السياسية. وبلغ السلطان خبر كاذب بأن ملك فرنسا توفي في طريق عودته إلىٰ أوروبا. وسرعان ما تحوّل شعور الفرح الذي سبّبه هذا الخبر إلىٰ حزن ودموع عند وصول خبر موت تقي الدين في سورية[1].

(1) هو الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (- 588/ 1191م). قارن عنه وما جرى بعد وفاته: مفرج الكروب 2/ 375 - 379.

كان هذا القائد الجسور مقرباً من صلاح الدِّين. ومن بين الدموع المتساقطة من عينيه، ردّد: أستغفر الله العظيم، والآية القرآنية: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 156]. إنّ الكره الشديد الذي كان يكنّه ابن شقيقه، للصليبيين الغُزاة، رسّخ وجوده وقوّاه، ولن يسدّد موته صفعة للجهاد فحسب بل وللتكافل الذي يجمع إمبراطوريته. أدّت هذه المأساة إلىٰ ظهور تمزقات داخلية ومطالبات تنافسية في مقاطعات بلاد ما بين النهرين. ولذلك كان لا بدّ من تحويل بعض الكتائب من جبهة القتال لقمع أعمال العنف. ثم وصلت رسالة من البلاط الخليفي المهيب في بغداد يوبِّخ فيها أمير المؤمنين السلطان الناصر بسبب عمليات سياسية قام بها في الجزء الشرقي من الإمبراطورية. ووجد صلاح الدِّين نفسه إذن في مواجهة التمرّد في الموصل، والاستنكار في بغداد، ولذا لم يتوقع أن ترده مساعدة قيّمة من جهة الشرق. وألقيت مهمة الدفاع عن المدينة المقدَّسة على كاهل فيالقه السورية والمصرية والتركية والكردية.

ظلّت طلائع الجيش المسلم تسبق الفرنجة في التلال، وبقي البدو على أهبة الاستعداد للهجوم على طول خط اتصال الغدو بالبحر، في حين توجهت قوات الجيش الرئيسية نحو القدس. لم يكن يتوقع أن يبدأ الحصار قبل انتهاء موسم الأمطار في الربيع، لكنه لم يكن واثقاً من دفاعه ويخشى نفاد الاحتياطي من مخزون الأسلحة. وفي رسالة كتبها لأمير بعيد، قال: «إن لم تصلنا أي إمدادات قبل الربيع المقبل، سنجد أنفسنا في وضع حرج». استغلت بعض الفرق هذا الشتاء الكئيب لتنفصل عن الجيش إلاّ أن إمدادات من الجنود وصلت من مصر، في الفترة ذاتها تقريباً، بقيادة أبي الهيجاء الكبير.

وفي الثاني عشر من كانون الأول/ ديسمبر، عند حصول انفراج في الأحوال الجوية، تحرّك الجيش الصليبي من جديد. وغادر الصليبيون الرملة باتجاه طورون الفرسان وعسكروا وسط أبراجها المهدّمة. وبعد قضاء يوم في

هذا المكان، تحرّكوا نحو موقع يُعرف باسم بيت نوبة أُخلي منذ فترة قصيرة ويقع على بُعد ثلاثة أميال شمال شرق النطرون. لقد بات المحرّرون الآن على بُعد عشرين ميلاً فقط من أورشليم. وقد اضطروا للتوقف مجدّداً بسبب تساقط الأمطار والثلوج.

وللمفارقة، وعلى الرغم من الظروف السيئة، كانت معنويات الصليبيين في ارتفاع مستمرّ. أقاموا معسكرهم عند سفح الهضبات ذات الجلاميد المميّزة والأودية الضيقة. ووجد الجنود الصليبيّون أنفسهم وسط الأماكن التي ألهبت أحلامهم وصلواتهم. وصلوا أخيراً إلىٰ الهضاب الدائرية التي خطى عليها مخلّصهم بصنداله وخطب في الجماهير. لقد باتت مدينة المخلِّص الحيّ قريبة إلىٰ حد الاقتراب من شمّ رائحتها. لا أحد يرغب في تفويت هذا النصر الأخير المجيد. حتى جرحى يافا أصرّوا على مواجهة مخاطر الطريق المزروعة بالبدو كي يشاركوا، هم أيضاً، في هذه السعادة. قدم العديد منهم على حمّالات من بيت نوبة، حتى وإن كانوا يعلمون بأنّ الإحساس بالشفقة لن يمنع البدو من الانقضاض على هذه القوافل المحمّلة بالمرضى والجرحى ومن لا حول له ولا قوة.

كانوا يعودون مرةً ثانيةً مثل مُحرِّري سنة 1099م. وَمَثل ملكهم ريتشارد كَمَثَل غودفري دو بويون جديد الذي جعل شوارع القدس قبل ثمانين عاماً تموج بدماء المسلمين واليهود. وهو من تردّد في أن يكون ملكاً وحكم، بكل بساطة، على أنّه «المدافع عن الضريح المقدّس». ولذلك كُتبت على قبر غودفري دي بويون العبارات التالية:

هنا يرقد النجم الساطع، دوق غودفري

من نشر الرعب في مصر، وفرّ من أمامه العرب

وبدّد شمل مصر،

أنتُخب ليكون ملكاً لكنه رفض اللقب
وأبى أن يتوج فهو «عبد للمسيح»
على كاهله ألقيت مهمة إعادة الحقوق لكنيسة السيد المسيح
كان مثال الكاثوليكي الذي يتّبع تعاليم الحق والمساواة المقدسة.
استحق، كما القديسين، تاجاً على رأسه
كان مرآة الجيش، قوة الشعب، ملاذ رجال الدين

لم يكن مجدهم أقل إبهاراً. لقد أوشكوا على مرثاة البابا غريغوريوس الذي ذكّر بالسِفر التاسع والسبعين حيث يقول: «يا إله الجنود، وثنيون في ميراثك. دخلوا بيتك ونجّسوه. وتركوا أورشليم في دمار». [سفر المزامير، 79].

ابتهج العسكر بالوصول رغم الوحول والثلوج، ولوّح الجنود بأسلحتهم في الهواء والريح في حركات احتفالية. تناقش الفرسان بشأن القوائم التي سيضعونها عقب التحرير، تماماً كما أقاموا مبارياتهم بعد سقوط عكّا. وتعالى صراخ ينادي بترك الأمور تأخذ مجراها في المعسكر استباقاً لما سيحصل. وعكفوا، داخل خيامهم، يلمّعون دروعهم ورماحهم، ويغسلون معاطفهم، وينظّفون صدرياتهم الجلدية، ويهندمون راياتهم استعداداً للمعركة.

وبدأوا ينشدون: «أيها الرب، لقد جئنا بفضلك إلى هذا المكان. وها نحن أخيراً على الدرب الصحيح».